ميرامار مصر

لم تكن قراءتى لميرامار نجيب محفوظ تتعدى مشاهدتي لرائعة السينما المصرية للمخرج كمال الشيخ، قد طبعت في ذاكرتى بكل تفاصيلها لتعكس حقبة تاريخية قد قمت بدراستها فى المرحلة الجامعية لتعكس واقعا مريرا إن صح التعبير لمجموعة مختلفة من شرائح المجتمع المصرى آنذاك التى تجمعت فى بنسيون فى أجمل بقاع الأرض وموطن تجمع علية القوم.

بعد قيام ثورة 25 يناير وجدتنى أعود لقصة ميرامار مرة أخرى، هذا الفضول الذى دفعنى للربط بين شخصيات هذه القصة بكل عواملها الشخصية والنفسية والسياسية وما يحدث على الساحة المصرية في ثورة 25 يناير 2011. حاولت معرفة هل التاريخ يعيد نفسه بكل حذافيره مرة أخرى؟ وهل هناك اختلاف في شخصيات هذا الزمن تؤهلهم لمستوى أعلى من القيم والأخلاق وحتى الإنحدار إن وصفنا الفترتين بالانحدار على كافة المستويات أخلاقيا وسياسيا واقتصاديا وحتى فنيا؟

لنتنطرق إلى كل شخصية على حدة، ونحاول معرفة مدى أوجه التشابه بينها وبين شخصيات اليوم في أعقاب ثورة يناير والفترة التى دفعت للقيام بها .

لقد شبهت ميرامار بقصر الرئاسة فى فترة حكم حسنى مبارك والسيدة الأولى التى تمتد فى أصلها إلى جذور أجنبية إذن ما أشبه اليوم بالبارحة، فكل منهما تدير بنسيونا مختلفا فى عدد الحجرات وقاطنيها، فنزلاء البنسيون ليسوا من أبناء الإسكندرية، وكذلك قاطنى قصر الرئاسة.

1 - فتلك العجوز الهيلينة التى لا تنظر إلى المرآة إلا لتتحسر على ما فات وتضفى بعضا من الشباب الزائل على وجنتيها لتبدو أصغر، والحقيقة تظهر فى كونها مجرد مومياء من الشمع المذاب لا تستطيع قضاء ليلة واحدة دون آلام، ولكن هى تلك المرأة على حقيقتها مجرد قوادة، ولكن فى زمن البهوات فهى أعلى مرتبة من غيرها لا دين لها إلا ما علقته من ملائكة فى السقف، ولا أمان لها إلا من يقبع تحت جنحها، وكانت **زهرة** تلك الفلاحة المتمردة التى لجأت إليها فأظهرت بعض من أرستقراطية مزيفة لكى تجعلها خادمة لديها وليس ضيفة مكرمة. لم تكن السيدة الأولى بأكرم منها فقد فتحت أبواب القصر لمن يأتمر بأوامرها فقط ومن يعارض فالويل له والمعتقلات تقول هل من مزيد .

وكما أن ثورة الضباط في 23 يوليو أتت لتحطم أمال كثيرة لماريانا، كذلك حطمت ثورة 25 آمال سيدة القصر ولكن أيهما أكثر تأثيرا؟ ثورة الضباط أم ثورة الشعب؟ أم ثورة الزمن الذى أفقدها ربيعها؟! لقد صور نجيب محفوظ شخصية صاحبة البنسيون بلا زيف ولا ادعاء لم يكن بها فهى تتفاخر بماضيها وعهرها وجمالها الذى فتن البشوات وعلية القوم وتعترف بفساد قيمها ولم لا فهى لاتنتمى لهذا البلد ولكن كل انتمائها للمال فقط .

2 - حيرتنى الشخصيات كثيرا- ولكنى سأختار شخصية طلبة مرزوق لأنه يتشابه كثيرا مع العديد من إقطاعيى اليوم، نعم، لدينا اليوم إقطاعون كثر، فثورة يوليو التى أنهت على إقطاعيى الأراضى، قد أفرزت لنا إقطاعيى القطاع العام، وتلاها إقطاعيو الانفتاح، ثم وأخيرا إقطاعيو القطاع الخاص وهم أخطر كثيرا،

فكما تكونت طبقة الفلاحين، اليوم تكونت طبقة العمال وهم أفقر.
طلبة مرزوق الحانق على الثورة وعلى الوفدين الذين مهدوا لها وعلى زعيمها الراحل سعد زغلول. هذا الإقطاعي الذى توقف به الزمن عند القرون الوسطى واليوم فقد كل شيء، ففكر فى عشقه القديم ماريانا ليسكب همومه على صدر أطاح به الزمن وعفا عليه، بعد أن أصبح حاضره مقبرة غير مريحة، فهو يؤمن بالله فقط لأنه يحترق في جحيمه هذا الجحيم الذى سلب الناس أموالهم وحريتهم.
ولكنه يحيى على أمل آخر أمل المنقذ الوحيد المتمثل فى أمريكا، نعم هي المنقذ له وكيف لا وهى المنقذ لمصر على مدار سنين فاتت، ليته عاش ليتنعم بها فى عهد حسنى مبارك، كم قبعت على صدور المصريين، وكم تنعم فيها إقطاعيو القطاع الخاص. يترحم على أيام الديمقراطية الذى سلب فيها الفلاح كرامته وأرضه وعزة نفسه ، لا يرى سوىأن الإعتداء على أمواله هو أعتداء على إرادة الله وسنته فى الكون ، يا له من عربيد تافه منتفخ كالطربوش الذى يقبع فوق عقله الفارغ، وقد تحول إلى كومة عظام ناتئة ورغبات مستحيلة.
هل نعد اليوم كم هم كُثر إقطاعيو القصر الكبير بداية من السيدة الأولى وانتهاء بأحمد عز، أتمنى ألا تكون هذه إهانة أعاقب عليها، ولكن كيف أعاقب وهم الأن معاقبون بالتربح غير الشرعى، وما أنا سوى إحدى ضحايا إقطاعهم النامى من العاطلين، ما أشبه اليوم بالبارحة، طلبة مرزوق يرى أنه أرغم بالقوة على ترك أمواله فليحمد الله أنه لم يكن اليوم فى سجن طرة، فكم كانت ثورة يوليو بضباطها تتسم بالليونة، وكان العدل الذى يرى أن الله لم يعد يستخدم فيه القوة مع البشر كالرياح العاتية والطوفان وغيره، العدل أن يعلقوا فى مشانق بالميادين العامة، ولكنه ترك القاهرة بحثا عن ملذاته وكتمان غيظه بين أحضان عقيدته الوحيدة وملته الباقية. وصف نجيب محفوظ شخصية طلبة بما رآه كشاهد لهذا العصر، ومطلع على ما فيه من حقد وكراهية ولدتها الثورة من الإقطاعيين وأصحاب المناصب، ولعله رأى البعض منهم منذ القريب فهم يتناسلون بطرق مختلفة.
3 - الشخصية الثالثة من وجهة نظرى المتواضعة لا شبيه لها اليوم، ولم يكن له شبيه فى الثورة الشعبية فى 25 يناير، إنه وجدى عامر أو مسيو عامر هذا الماجن المؤمن الثورى صاحب المعتقدات الخطيب المفوة الصحافى الطاعن في السن الذى يبحث عن السكون الروحى والهدوء النفسى فى مسكن ميرامار ... كيف ذلك؟! عاش حياة صاخبة متلونة بكل ألوان البشر، فهو عربيد يعشق الملايات اللف، تسوقه شهوته الصبيانية وراءها، لا يحب جميلات الأفرنج، وهو ثورى وفدى، وخطيب يلهب المشاعر التى تؤجج الحماس داخل النفوس، وهو عدو طلبة مرزوق الذى مهد مع الوفديين لما آلت إليه حياته، ولكنه الآن يشفق عليه، فقد خسر ما يماثله ليس مالا ولكن تجاهل المجتمع الذى كان يعد من بناة المجد الوطنى فيه .
حيرتنى شخصية عامر وجدى، ورأيت فيها نجيب محفوظ الكاتب والأديب الذى ظل يبحث عن نجيب محفوظ حتى لحظاته الأخيرة مع الفارق فى الشهرة والمجد والتكفير والإلحاد ومحاولة القتل، رأيت فيه الغربى الذى يبحث عن الإيمان فقد اكتفى من ملذات الدنيا حتى وإن حرم بعضها نتيجة لسوء إدراك البعض. ورأيت فيه الشرقى الذى يحمل كتاب الله ويقرأ سورة الرحمن ليكفر عن ذنوب ارتكبها وفي قرارة نفسه عزة مجده وتاريخه الذى يقصه بروح الشباب التى يبحث عنها فى زهرة تلك البنت الفلاحة البريئة القوية التى تذكره بملايات لف يهواها.

كم من صحافى اليوم يشبه وجدى عامر؟! وكم منهم ثار مع الثوار في 25 يناير؟!
لم يتلون عامر وجدى مع من تلونوا في ثورة يوليو، وساروا فى ركبها على الرغم من إيمانه بها، ولكن إيمانه بالوفد- الذى سرقه أصحابه واندمجوا مع الثورة- أكبر. عامر وجدى فى ميرامار هو راوى الأحداث، هو تاريخ الوفد الذى اندثر ولم تندثر معه ثورته العالمية الخالدة، هو مثال الثائر الحق الذى لم يلهث وراء مغانم الثورة كما حدث فى ثورة 25 يناير، كم أطل علينا صحافيو التلوين الذين شجبوا ونددواعلى الخروج على الشرعية، وسرعان ما شجبوا ونددوا بنفس اللهجة حول الفساد والفاسدين .
ولكن عامر وجدى آثر الانسحاب، واكتفى بروح الثورة التى أزهقها أبناؤها وصار الحكم لهم واندمجوا مع من نهبوا العالم الجديد، لقد آثر الاكتفاء بحياة ميرامار وأحداثها الضيقة وضيوفها من أطياف المجتمع الاشتراكى الجديد، فهو لا يحب الشيوعيين ويبغض الإخوان، كم يبغضهم اليوم من أبناء التيارات المختلفة، ولكن حكمة الله التي لا تخطر على بشر أن يدخل الإخوان بنسيون ميرامار الكبير على أنقاض ساكنيه بعزة وكبرياء رغم أنف الباغضين. أين أنت يا عامر وجدى؟ وهل سيظل موقفك من الإخوان كما هو أم ستتلون؟
وبعيدا عن عامر الصحفى نجد الإنسان الملحد المؤمن المحب العاطفى المتقوقع داخل دائرة ذكرياته المجيدة وحبه الذى أخفق فيه والدنيا التى حرم منها، ولكنى أخذت عليه ربطه بين ما يحدث له من مواقف فى البنسيون فيتذكر ما يشابهها فى حياته، مثل مقابلة الحب الطاهر بالملآت اللف التى تنتقيها له القوادة. فشتان بينهما يا عامر، ولكن سرعان ما يعود إلى قوقعته التى ينظر منها إلى عالم المتناقضات حوله ويرى الأمل مرة أخرى فى زهرة وهى تتمسك بمواصلة تعليمها وينهى رؤيته بالإيمان وسورة الرحمن التى يعشقها. يذكرنى بمن يحملون كتاب الله يحتمون به خلف القضبان أو يستدرون عطف الناظرين بشغف لحكم يثلج صدور بعضهم .
4 - يا زهرة الوادى، يا نبتة الأرض الطيبة، كيف أسميك يا شخصيتى الغالية التى حرمك الكاتب من تسليط الضوء على طبقتك التى عانت الأمرين؟ وكم صبرت حتى أعادت لها الثورة كرامتها وملكتها ما كانت أجيرة فيه؟ بل اكتفى بإظهار الجانب الغبى فيك، فمنذ متى تهرب الفلاحات لظلم الأهل يا سيدى؟ وهل تدور الرواية فى فلكها حتى تكون هى الغانية التى توقع الرجال؟ ونسيت أن من دفعها إلى ذلك لم يكن وفاة الأب، ولم يكن طمع الجد، ولم تكن قسوة زوج الأخت، ولكنك ترمى إلى أبعد من ذلك، إلى طبيعة الأنثى التى تعشقها، والتى رأيت فيها عناد مسيو عامر وشهوة طلبة مرزوق وعنجهية حسنى علام وتسلق سرحان البحيرى وشيزوفرنيا باهى منصور. كل هؤلاء أظهرتهم زهرة بطبيعتها الريفية البسيطة، ولن ننسى القوادة صاحبة البنسيون، ومع ذلك لن تكونى الضحية فى رأيي يا زهرة، فسآتى عليك ككل النساء عندما أقرأ ميرامار، لا ... أنت لم تمثلي طهارة ثورة يوليو.
5 - ونأتى إلى حسنى علام ذلك الإقطاعي العربيد الذى يملك المائة فدان، ولماذا يملكهم؟
الذى يلون نفسه بألوان النساء، فلا هو ذواق، ولا هو تائب، ولا هو إقطاعى، هو فقط عربيد يسامر النساء، يستهين بكل شيء حوله، لا يجد حياء فى ممارسة شهواته خلف جدران سيارته التى تسرع به، ولا يرى لها محطات انتظار تطل على واقعه المنفلت الجاهل الذى يداريه بما ينفقه على القوادين. حسنى علام الذى لا يرى الثورة أساسا فهى لا تمثل له سوى منحنى من حياته البائسة. بمن يذكرنا هذا العلام؟ إنه الفتى المدلل للقصر كما دللته ماريانا طمعا فى أمواله ومشاريعه، ولكن التدليل هنا اليوم له ثمن يقضيه من عمره القادم

خلف قضبان زج بالكثيرين خلفها، لأنه لم يفهم الدرس جيدا ولم يقرأ سوى تاريخ يُمجده هو فقط، وحاشية لا ترى سوى مطامعها الشخصية فى جو فاسد من المحسوبية والرشوة والتسلق على أهداف الثورة النبيلة، وفساد أخلاقى لا يلقى رقيب، ما أشبه هذا العلام بذاك الـ (جمال).

6 - سرحان البحيرى هذا المتسلق على الثورة المستفيد بما جادت به عليه وإن أضفى الكاتب عليه مسحة إنسانية نحو أهله، إلا أنه مازال يبحث عن الثراء فى عيون قاطني البنسيون، لذلك كان قربه من حسن علام الثرى الطائش ،فالبحيرى اشتراكى زائف تحول إلى سارق لينهى حياته بلا إيمان كما عاش بلا عقيدة، يحلم بميراث الطبقات القديمة ولا يهم الطريقة، يرى فى الثورة طموح لا هدف له، وسيلة لغاية يقتنى بها فيلا وسيارة وزوجة ثرية، لا يرى سوى تحت قدميه، فلا يعرف من الثقافة إلا ما يخدم أهدافه، حتى زهرة لم تكن سوى هدف لإشباع غريزته، وإن صُورت أحيانا بحالة حب انتفض من خلالها قلبه، وهو فى الأصل خائن لوطنه ولنفسه ولوظيفته التى عقد العزم على سرقة خيرها لنفسه ولصديقه المهندس لتنتهى بمأساة انتحاره، وهذه نهاية الحياة الزائفة وهو يتمسح فى الإسلام ليتقرأ الفاتحة على العمل المشين، ويوهم زهرة بالزواج الإسلامى، يا له من فاسد فاشل كما فشل اليوم هذا المتعنت الصلف الذى رأى فى نفسه الفرعون الذى لا يقهر بما كان حوله من أجهزة تحميه، ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، وكيف لا يدفع الثمن وهو خائن لا عهد له ولا دين.

6 - منصور باهى هذا الذى يتلذذ بتعذيب الذات، فى حين أنه يدارى خلفها وغدًا لا يرى سوى الانقضاض على حبيبته التى جردها من بيتها وزوجها ووضعه في السجن بما له من سلطة أخيه الضابط، حتى وإن أنكر اشتراكه فى الخيانة إلا أنه خائن كما هؤلاء الأوغاد فى عهد الطاغية الذين سلطوهم على رقاب الناس من الإخوان وغيرهم حتى صار الأخ يخشى أن يكون أخوه مرشدًا لأمن الدولة. تناقض النفس البشرية الذى أوقعه فى مغبة الإعياء النفسى والتعذيب الذى طال حبيبته وطال شرفها، ثم تخلى عنها، كيف يكون له عهد أو ذمة؟ بل تعدى ذلك إلى انحطاط آخر، وهو التفكير فى القتل، بل محاولة القتل لم ينقذه منها سوى دعاء والديه من وجهة نظرى، فهو خائن لا للماركسية الشيوعية، ولكن لذاته التى يبحث عنها فى منفاه بالإسكندرية والحب المزيف لزهرة والقتل لمجرد الانتقام من نفسه فقط، هو لا ينتمى للثورة، ولكنه ضدها لا يرى فيها سوى انحطاط نفسه وآلامها. حتى الصورة المثالية التى يرغبها لنفسه وللعالم تصطدم بواقع سرحان البحيرى فتحطم أحلامه وتحثه على الإنتقام.

وأخيرا فإن الكاتب لم ينصف شخصياته، بل وضعهم كما يراهم فى تلك الفترة؛ ليعكس بهم حالة المجتمع بعد ثورة يوليو التى لم ير فيها البعض سوى تحايل على أمن الوطن واستقراره، ورأت فيها الطبقات الفقيرة من الفلاحين الملاذ ورأى فيها المتسلقون وأنصاف المتعلمين فرصة للقضاء على أحوالهم الصعبة ورأى فيها المتعلمون انهيارا للأحزاب المسيطرة والجماعات الإسلامية كالإخوان.

وتشابهت أحوال البلاد ما بين ثورتي يوليو 52 وثورة 25، فقد أتت كلٌ منهما بأفرادها، فالعسكرهم حماة الثورتين، والفاسدون والإقطاعيون يحاكمون، والمتسلقون كثر، ولم يبق سوى وجدى عامر هو من أحتار في أمره، لا أجد له مشابها، فمصر ما هى إلا ميرامار سواء في بانسيون ماريانا، أو ميرامار فى قصر الرئاسة بكل شخصياته ومتناقضاته